

القسم التاسع

تجميل الفجيرة

ما أحوج الضحايا ليُنقذوا من آثار
الكراهية..

إنتهت الحرب، وتوالت الإجتماعات المغلقة التي يرأسها صدام حسين، وتباينت مستويات تلك الإجتماعات حيث حضر بعضها أعضاء في القيادة السياسية وحضر بعضها الآخر وزراء وكبار الموظفين الذين يتولون مهمات تنفيذية في أجهزة الدولة، وتباينت أيضاً الموضوعات التي جاءوا للبحث فيها، غير أن الأمر الأكثر أهمية هو أن اللغة المتداولة في الإجتماعات لم تتغير، كأن الحديث ما يزال يدور حول حرب لم تكن منتهية، .. إنذرتمة منطق يكرر نفسه حتى بعد الهزيمة في هذه الحرب، كان يكفي أن تصدر عن الرئيس كلمة ما ليدور حولها كلام الحاضرين، بمعنى أن المشاركين في الإجتماعات كانوا يربطون مسامع الرئيس بما يرضيه من آراء أو إقتراحات أو إجتهاادات.

ربما كان هناك ما يفسر لهجة الأمل خلال الحرب عندما لم تكن الهزيمة قد وقعت بالكامل، أما بعد الحرب حيث جللت الفجيعة البلاد كلها بآثارها القاسية فلم يعد هناك ما يبرر لغة التمني، بل إن الأصوات التي تخرج من مستنقع الهزيمة لتتحدث عن النصر كانت شاهداً على آثار الفجيعة التي فرخت تشوهات حادة في بنية الوعي ونمط السلوك، وبات على الذين يتلقون سياط الجلد أن ينشدوا ملء أفواههم للجلاد متلذذين بالعذاب وكأنه إحدى هبات النصر، كما أن الوطن المرشح للتقسيم بات في منطق تبرير الهزيمة هو أكثر البلدان تماسكا وتوحداً، وبات الشعب الجائع المحاصر هو الشعب الحر الوحيد وسط شعوب العالم المستعبدة .. حتى ليبدو أن هذا اللامنطق في الوعي وتبرير الخطأ هو أحد النتائج الموجهة لهزيمة لا يعترف بها أصحابها والمتسببون في وقوعها ..

بعد خمس سنوات، وتحديداً في منتصف شهر تشرين الثاني نوفمبر 1995، دعا الرئيس صدام إلى إجتماع تحضره القيادات الوسطى من وكلاء الوزارات والمحافظين والسفراء والمديرين العاميين في لقاء موسع بعد إعلان فوزه في إستفتاء على منصب الرئيس لم ينافس فيه أحد وحصل فيه حسب الأرقام الحكومية على نسبة 96,99% من أصوات الناخبين، وهو الإستفتاء الذي أعد له أصلاً لإمتصاص بعض آثار الإنيهيات المتتالية في بنية الحكم بعد إنشقاق عائلي كبير نجم عن هروب صهري الرئيس وإبنتيه إلى الأردن .

ومن المناسب عرض ما دار في هذا اللقاء، لتبين الشبه الكبير مع اللقاء الذي جرى في 24/1/1991 ..

النصوص والأوصاف هناك منقولة عن أحد وكلاء الوزارات الذين حضروا الإجتماع ..



أُستدعي وكلاء الوزارات والمديرون العامون وبعض السفراء عند التاسعة صباحاً وأستغرق إعدادهم لمقابلة الرئيس عشر ساعات استقلوا في خلالها حافلات نقل أُسدلت الستائر الداكنة على نوافذها حتى لا يكون في مقدورهم معرفة الطرق التي تمر فيها والعنوان الذي يذهبون إليه، كما خضعوا لتفتيش دقيق .. نزعوا ملابسهم ثم عادوا فارتدوها، غسلوا أيديهم بمعقمات طبية، فحصوا أسنانهم، ونزعوا كل ما كان معهم من أقلام وساعات وقلائد وأحزمة .. ويفترض أن ألسنتهم ظلت في أماكنها. دخلوا إلى القاعة لينتظروا طويلاً قبل أن يأتي سكرتير الرئيس ثم حراسه ليفحصوا الكراسي والستائر وبلاط الأرض على المسرح الذي سيجلس عليه الرئيس . عند الساعة السابعة مساءً وصل رئيس الجمهورية إلى قاعة (الخلد) ليستقبله كبار موظفي الدولة بالتصفيق والهتافات فيرد عليهم بحركة يمينه المعتادة مبتسماً ودافعاً صدره إلى الأمام، وكانت أول عبارة قالها للحاضرين : أهلاً بشباب الدولة.

فأبتسم عندئذ الوكلاء والمديرون الذين أكل الزمن من ملامحهم وإزدادات أوزانهم منذ تبوأوا مناصبهم الحكومية وتخلوا عن إيقاع حياتهم السابقة عندما كانوا موظفين صغاراً لا يحظون بالإمتيازات ولا تنهال عليهم الولاثم.

كان يُفترض أن هذا اللقاء الذي يجري بعد إعلان نتائج الإستفتاء الرئاسي سينطوي على تبادل معمق للآراء حول المشكلات الإقتصادية والإدارية في الدولة وإقتراح حلول لمواجهة تفتت المجتمع وإنهياره المعنوي والقيمي ، هذا ما توقعه الجيل الثاني من مهندسين وإقتصاديين كانوا بين الحاضرين، إنذرت أنها فرصة لكي يقولوا لرئيس الدولة إن الوضع الكارثي الذي تمر به البلاد يحتاج إلى عمليات جراحية شاملة، وربما افترضوا أن شعور الرئيس بالنشوة بعد إعلان نتائج الإستفتاء قد يصبح سبباً ليجعله أكثر إسترخاءً وتسامحاً مع نفسه وشعبه وموظفي الدولة.

غير أن نمطاً آخر من الحاضرين كان يجد في مثل هذا اللقاء مناسبة لإسترضاء الرئيس وبث مسامحة بما يرضيها من كلمات الإشادة والمديح، فنهض السيدكريم وهيب وهو مدير عام في المنظمات الشعبية ليمتدح الرئيس ويمجد سيرته قائلاً له : أنا ابن الفقراء وأنتب قائداً.

فضحك الرئيس وقال : إنني أعرف (كريم) منذ كنا في السجن حيث كان يعد لنا طعاماً طيباً ..

عاد وهيب فقال :إننا نحن – المديرين العاميين في المنظمات الشعبية – نعيش بلا عمل ولا يجوز لنا أن نبقي كذلك وألتمس من سيادتكم إعطائي الفرصة لأعمل في مجال السياحة الدينية لإستقدام الزوار إلى الأضرحة المقدسة وسنحصل على مليار إلى ملياري دولار من هذه السياحة ..

ثم جاء دور الشاعر لؤي حقي وهو أيضاً مدير عام في المنظمات الشعبية فألقى قصيدةً في مدح الرئيس. وتلاه مولود جابر الدوري وهو أيضاً من المديرين العاميين المفرغين للعمل الحزبي فتباكى أمام الرئيس وقال إنه جاء معه قصيدة لمدحه غير أن الحراس أخذوها منه مع حاجاته الأخرى قبل الدخول إلى القاعة .. عندئذ أشار

الرئيس لمرافقيه كي يجلبوا قصيدة المديح وتمكين مولود من قراءتها.

وتحدث السيد نوري المرسومي وكيل وزارة الإعلام فقال : إن الذين انتخبوا صدام حسين إنما عبروا عن تأييدهم لبرنامجهم وأكدوا أننا سنصمد في مواجهة الأجنبي وأطماعه وأنا قادرون على حرق أوراقهم التي سيستخدمونها في المرحلة التالية.

فعلق الرئيس صدام ساخراً :

—لم تبق لديهم أوراق كثيرة .. إنما لديهم الآن أدوات صغيرة فحسب.

ثم امتدح السيد فهد الشركة (وهو من القياديين السابقين في الإتحاد الوطني للطلبة) المواطنين الذين صوتوا لصالح صدام حسين في الاستفتاء .. وعبر عن ولائه للرئيس وإستعداده لإفتداء نفسه من أجله .. (عينه الرئيس صدام رئيساً للدائرة التربوية في ديوان الرئاسة فور إنتهاء الإجتماع) .

وتوالى المتحدثون بين مدير عام في وزارة المالية وآخر في وزارة التجارة وآخر في وزارة الإسكان دون أن يأتوا بأفكار أو حلول لركام من المشاكل التي تُثقل كاهل المجتمع ومؤسسات الدولة إنما أفاضوا بمدح الرئيس والتعبير عن الولاء له بعبارات مكررة وجاهزة.

أما الرئيس فقال في نهاية الإجتماع إن الهدية التي ينتظرها من هذا اللقاء هي أن تقدم له خلال ستة أشهر فقط خطط من الوزارات لا يطلب فيها واضعوها أي تخصصات مالية بحيث يبحثون عن سبل تمويلها ذاتياً. وطلب أن تُرسل هذه الخطط إليه مباشرة لدراستها.

ثم دعا كبار موظفي الدولة إلى وليمة أقيمت في الحديقة الملحقة بقاعة (الخلد) حيث وضعت أشهى الأطعمة أمام الحاضرين .. وانتظر الإداريون وموظفو المراسم إنتهاء الوليمة ليجمعوا بقاياها ويذهبوا بها إلى منازلهم ..

أما الوكلاء والمديرون والسفراء فانظروا ليحصل كل واحد منهم على مائة وخمسين ألف دينار هديةً من رئيس الدولة في وقت كان العراقي خارج تلك القاعة يأكل الحجر ويبيع كليتيه ولحم أبنائه.



لم يفت أولئك الموظفين، كالعادة دائماً، ترديد ما يسر الرئيس : لقد إنتصرنا .. وأنهزم الآخرون .. وبدا أن الفجيعة ليست في وقوع الهزيمة فحسب .. بل في الإعتقاد أن الهزيمة لم تقع بعد ...

انقضى الاجتماع دون ان يتمكن حراس الرئيس من جلب قصيدة المديح التي أمر صدام حسين بإحضارها..فإما أن رئيس الدولة ضحك على موظفه وأعطى إشارة عكسية لمساعديه، وإما أن الأمر الذي يصدر عنه لم يعد مطاعاً من معيته حتى لو تعلق الأمر بقصيدة مديح...